

كتاب الحلال

الأرواح المتمددة - الأجنحة المتكسرة

الموسيقى

كتب في كتاب

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

جبران خليل جبران



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الحديث



الموسيقى

Amy

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

جلست بقرب من أحبتها نفسى أسمع حديثها . أصفيتها
ولم أنس بينت شفة ، فشعرت أن فى صوتها قوة اهتز لها
قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتى عن ذاتى ، قطارت
نفسى سابحة فى فضاء لا حد له ولا مدى ، ترى الكون
حلما والجسد سجنا ضيقا .

سحر عجب مازج صوت حبيبتى وفعل بمشاعرى
ما فعل ، وأنا لاه عن كلامها بما اغنانى عن الكلام

هى الموسيقى أيها الناس ، سمعتها اذ تنهدت حبيبتى
بعيد بعض الكلمات وابتسمت فى بعضها . سمعتها لما حكّت
تارة بالفاظ متقطعة وآونة بجمل متواصلة وأخرى بكلمات
أبقت نصفها بين شفتيها

تأثيرات قلب حبيبتى ، رآيتها بعين سمعى فاشغلتنى عن
جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هى
صوت النفس

بلى ، فالموسيقى هى لغة النفوس ، والألحان نسيجات
لطيفة تهز أوتار العواطف . هى أنامل رقيقة تطرق باب
المشاعر وتنبيه الذاكرة ، فننشر هذه ما طوته الليالى من
حوادث أثرت فيها بعض عبر

هى نغمات رقيقة تستحضر ، على صفحات المخيلة ، ذكرى
ساعات الأسى والحزن اذا كانت محزنة ، أو ذكرى أوقات
الصفاء والأفراح اذا كانت مفرحة

هى مجموع أصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ
اضلعك لوعة وتمثل لك الشقاء كالأشباح

هى تأليف أنغام مقرحة ، تميعها فتأخذ بمجامع قلبك
فيرقص بين اضلعك فرحا وتيها

هى رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الأثير ، فقد
تخرج من عينيك دمة محرقة اثارها لوعة نأى حبيب أو آلام
كلوم خرقها ناب الدهر . وربما خرجت من بين شفتيك
ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء

هى جسم من الحشاشة ، له روح من النفس وعقل من
القلب

وجد الانسان فأوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة ،
ليست كاللغات ، تحكى ما يكنه القلب للقلب ، فهى حديث
القلوب . وهى كالحب عم تأثيرها الناس ، فترنم بها البرابرة
فى الصحراء ، وهزت اعطاف الملوك فى الصروح . مزجتها
التكلى مع نوحها ، فكانت ندبا يفتت قلب الجواد . وبثها
الجدلان مع افراحه ، فكانت انشادا يطرب مغلوب الأرزاء ،
فقد حاكت الشمس ، اذ احيت بأشعتها جميع زهور الحقل

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ،
فتظهر اعماقه . والألحان فى قضائى اشباح الدات الحقيقية
أو خيالات المشاعر الحية . والنفس كالمرآة المنتصبية تجاه
حوادث الوجود وفوايله تنعكس عليها رسوم تلك الاشباح
وصور تلك الخيالات

النفس زهرة لينة فى مهب ربيع المقادير ، نسيومات الصباح
تهزها وقطرات الندى تلوى عنقها . كذا تغربدة عصفور
تبه الانسان من غفلته ، فيصفى ، ويشعر ، ويمجد معه
الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج
تلك التغربدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحف به ،

فما أسرّه لحن ذلك الطائر الحقيق فحرك أوتار عواطفه
وأوحى إليه معاني ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل
مستفهما عما إذا كان العصفور ينجي زهور الحقل أم
يحاكى أغصان الأشجار أم يقلد خرير مجارى المياه أم ينادم
الطبيعة بأسرها ، ولكنه لا يستطيع الى الحصول على
الجواب سبيلا

الإنسان لا يدرك ما يقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ،
ولا الجداول على الحصى ، ولا الأمواج اذ تانى النشاط
بيضاء وهدهد . ولا يفقه ما يحكىه المطر اذ يتساقط منهملا
على أوراق الأشجار ، او عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور
نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه
يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهنز
لها تارة بعوامل الطرب ، ويتنهطورا تنهدات الاسى والكآبة .
أصوات تناجيه بلغة خفية ، وضعتها الحكمة قبل كبانه ،
فتحدثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود
اللسان حائرا ، وربما ناب عن لفظه الدمع والدمع افصح
مترجم

تعال معي يا صاح ، الى مسرح الذكرى لنرى منزلة
الموسيقى عند أم طوتها الأيام ، وتعال نتأمل تأثيرها في كل
دور من أدوار ابن آدم

عبيدها الكلدانيون والمصريون كاله عظيم يسجد له وبمجد .
واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال
شاعر فارسي ما معناه : « ان الموسيقى كانت حورية في
سماء الآلهة فعمشت أدميسا وهبطت نحوه من العلو ،
فغضب الآلهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحا شديدة نثرتها
في الجو وبعثرتها في زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قط بل
هي حية تقطن آذان البشر »

وقال حكيم هندي : « ان عذوبة الالحن توطد آمالي
بوجود ابدية جميلة »

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الها مقندرا ، بنوا
له هياكل عظيمة مابرحت تحدثنا بعظمتهم ، ومذابح فخيمة ،
قدموا عليها أجمل فرابيتهم واعطر بخورهم . الها دعوه
« أبولون » فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصبا ، كالغصن
على مجارى المياه ، يحمل القيثارة فى يسراه ، ويمينه على
الأوتار ، رأسه مرفوع بمثل العظمة ، وعينه ناظران الى
البعيد كأنه يرى اعماق الأشياء

وقالوا ان رنات اوتار أبولون صدى صوت الطبيعة .
رنات شجيرة ينقلها عن تغريد الطيور وخريف المياه وتنهذات
النسيم وحفيف اغصان الأشجار

وجاء فى اساطيرهم أن رنات اوتار «أورفيوس» الموسيقى
حركت قلب الحيوان فاتبعته الضواري ، والنبات ، فمدت
نحوه الأزاهر اعناقها ومالت اليه الاغصان ، والجماد ،
فتحرك وتفتت

وقالوا فقد أورفيوس زوجته فبكاه ورثاها ناديا حتى
ملأت نفمة لوعنه البرية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت
قلوب الآلهة ففتحت له ابواب الابدية كي يلتقى بحبيبته فى
عالم الأرواح

وقالوا قتلت بنسات الاحراج اورفيوس ورمين برأسه
وقيثارته الى البحر ، فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها
اليونان « جزيرة الاغانى »

وقالوا ان الامواج التى حملت راس اورفيوس وقيثارته
ما برحت منذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها نديا مؤثرا
وانغاما محزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون

هذا كلام — بعد أن قضى عز تلك الأمة ومضى — دعواته خرافات مصدرها الوهم وأحلاما ابتدعتها التصورات ، غير أنه قول دل على أن تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقا وعظيما فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغه شعريه مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال ، وهذا في عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت البنا آثار الآشوريين رسوما تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها ، وحدثنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد . أجل . فالسعادة بدونها تحكى فتاة قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع امم الأرض ، سبحت معبوداتها بالاناشيد ومجدها بالألحان ، وكانت التراتيل — وهى الآن — فرضا كالصلاة يقدمونها في المعابد ، وكمحركات يقفونها على القوة المعبودة . نخرقات مقدسة مبدأها عواطف النفس . صلوات يهذبها القلب وما أكملته اهتزازات المشاعر . انفاس حرة ما زلفتها الالفاظ بل تظرفت بها انفاس انارتها تدامة الملك داود فعلاّت أناشيده ارض فلسطين ، وابتدعت اشجانه انعاما شجية مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ، تطلب له مغفرة زلاته ، وكان رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المتسحق ، وسرت مع قطرات دمه الى اصابعه ، فكانت اعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس . وهو القائل : « هللوا للرب ، سبحوا الرب بصوت البوق ، سبحوه بالزماير والقيثارة ، سبحوه بالطبل والدفوف ، سبحوه بالأوتار والأرغن ، سبحوه بصوت الصنوج ، سبحوه بصنوج التهليل وكل نسمة فلتسبح الرب » . وجاء في الاسفار أن ملائكة من السماء تأتي ، في آخر الدهر ، نافخة الأبواق في جميع اقطار العالم فتستفيق من صوته الأرواح وتلبس اجسامها

وتنشر امام الديان . لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى
اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر ، وما قول
الكاتب الا صورة مشاعره ، وعلى نوع كلام ينطبق على
اعتقادات معاصريه

وجاء ، في بدء مأساة ابن البشر ، ان النلامذة سبخوا
قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم ،
وكانى الآن اسمع نغم تلك التسبيحة صادرا من أعماق
نفوس حزينة رأت ما سيحل برسول السلام فتنفست عن
نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع

تسير الموسيقى ، امام العساكر ، الى الحرب فتجدد
عزيمة حميتهم وتقويهم على الكفاح ، وكالجازبية تجمع
شنائهم وتؤلف منهم صفوفا لاتتفرق . ما سارت الشعراء ،
امام الكنائس ، الى ساحات القتال ، موطن المنية ، لا ولا
الخطباء ، ما رافقتهم الأقلام والكتب ، بل مشيت امامهم
الموسيقى كقائد عظيم ، يبت في أجسامهم الواهنة ، قوه
تفوق الوصف ، وحمية تنبه في قلوبهم حب الانتصار
فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكل ما في
اجسادهم من القوة ، ووراءها يسسيرون بفرح وطرب
ويتبعون الموت الى ارض العدو المبعوضة . كذا يستخدم
ابن آدم اقدس ما في الكون لتعصم شرور الكون

الموسيقى رفيقة الراعى في وحدته ، وهو ان جلس على
صخرة في وسط قطيعه تفخ بشبابته الحانا تعرفها نعاجه
فترعى الاعشاب آمنة . والشبابه عند الراعى كصديق عزيز
لا تفارق وسطه ، ونديم محبوب ، تستبدل سكينه الاودية
الرهيبة برياض ماهولة ، وتقتل بأنعامها النسيجية وحشتها ،
وتعلا الهواء أنسا وحلاوة

الموسيقى تقود اظعان المسافرين وتخفف نائير التعب
وتقصر مديد الطرقات . فالعيس لا تسير في البیداء الا اذا

سمعت صوت الحادي . والقافلة لا تقوم بنقيل الاحمال الا اذا كانت الاجراس معلقة برقابها . ولا بدع ، فالعقلاء في ايماننا هذه يربون الضواري بالالحن ويدجنونها بأصوات عذبة

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا الأرزاء والأفراح وتساهمنا السراء والضراء . وتقوم كالشاهد في أيام مسرتنا وكقريب شغوق في أيام شغائنا

يأتي المولود من عالم الغيب الى دنيانا ، فتقبله القابلة والأقارب بأغاني الفرح ، متأملين بأناشيد الابتهاج والحبور . يحجبهم ، عندما يرى النور ، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتلهيل والهناف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على إقحامه الحكمة الالهية

وانذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنت بصوتها الموسيقى المملوء رقة وحنوا ، فيكف عن البكاء ويرتاح لالحن امه المتجسمة من الشفقة وبنام . وفي الحان الوالدة ونغمتها قوة توغز الى الكرى ليغمض أجفان طفلها . وتشارك تلك الالحن السكينة بهدونها فتزيدها حلاوة ، وتمحو رهبتها وتملاها سحرا من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلب الرضيع على الأرق وبنام وتطير نفسه الى عالم الأرواح . ولا ينأى الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرأت ابن الفارض . .

ينتقى الرجل شريكة حياته وتتحد نفسيهما برباط الزواج ، متممين وصية كتبها الحكمة منذ البدء على قلبيهما ، فيجتمع الأقارب والخلان ويفرحون بالأناشيد والأهازيج ، ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة ، فكانى بها ، يوم العرس ، صوت رهيب تمازجه

الحلاوة ، صوت يمجّد الله في مخلوقاته ، صوت ينبه الحياة
النائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الأرض

وعندما يأتي الموت ، ويمثل آخر مشهد من رواية الحياة ،
نسمع الموسيقى المحزنة ونراها نملأ الجو بأشباح الأسى ،
في تلك الساعة الموحجة اذ تودع النفس ساحل هذا العالم
الجميل وتسبح في بحر الأبدية ، تاركة هيكليها الهولى بين
أيدي الملحنين والندابين ، فيتأوهون بنغمات الحزن والأسف
ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيعونها بالحن مفادها الضيم
واناشيد معناها الكمد واللوعة . نغمات يحيونها ما بقى
التراب فوق التراب ، وان بليت يبق صداها في خلايا الجوارح
ما دام القلب يذكر من مضى

جالست من ميزه الله بعدوبة الصوت وحباه ادراك فلسفة
التنظيم والايقاع فرايت السامعين حوله مصفين ، صاغرين ،
ماسكين انفاسهم ، محكومين بغواعل السكبنة ، شاخصين اليه
كالشعراء المستسلمين لقوة فعالة ، توحى اليهم أسراراً
غريبة ، حتى اذا ما انتهى الملحن من انشاده تنهدوا ذاك
التنهد الطويل : آه . آه . آه . صادرة من افئدة هيجت
فيها الألحان عواطف مكنونة فلذ لها النأوه . آه ، تنفسها
قلوب حرى انعشتها الذكرى . آه ، كلمة صغيرة لكنها حديث
طويل . آه ! ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه ،
بل تنهداها من اعار اذنا لنشيد نسج من مقاطع انفاس
متقطعة . انفاس حية مثلت له فصلاً من رواية حياته
الماضية او قشت سرا اكنته اضلعه

وكم تأملت وجه سامع حساس فرايت ملائحه تنقبض
تارة وتنبسط طورا وتنقلب مع تقلبات النغم . واهتديت
بخلقه الى خلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره

والموسيقى كالشعر والتصوير ، تمثل حالات الانسان
المختلفة وترسم اشباح اطوار القلب وتوضح خيالات ميول

النفس وتصوغ ما يجول في خاطر وتصف أجمل مشتهات
الجسد

« النهاوند » يمثل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف
آخر نظرة من راحل عزيز . يمثل شكوى الأم مبرحة بين
ضلوع قوامها لظى الشوق . النهاوند صوت من اعماق
النفس الحزينة . نعم متجسم من مهجور يسأل عطفاً على
رمقه قبل أن يضيئه البعاد . زفرات يائس انشأتها المراوغة
وتنهذات قانط بثتها لوعة من أتلغه الصبر والتسجد .
النهاوند يمثل الخريف وتناقل أوراق الأشجار المصقرة
بسكينة وهدوء ، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها .
النهاوند صلاة والددة نأى ابنها إلى أرض بعيدة ، فباتت بعدة
تغالب النوى فيها جمها بعوامل اليأس وتصد به فواعل الصبر
والأمل . وفي النهاوند معنى ، بل معان وأسرار ، يفهمها
القلب وتفقهها النفس ، أسرار يحاول بثها اللسان وكشفها
القلم ، فيجف هذا وتنقطع أوصال ذلك ..

واصفيت « للأصفهان » فشاهدت ، بعين سمعى ، آخر
فصل من حكاية عاشق دنف ، مات حبيبته فتقطعت عرى
آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من
الحياة ، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق . الأصفهان
آخر نفس من منازع واقف ، في مركب الموت ، بين شاطئ
الحياة وبحر الأبدية . الأصفهان رثاء الذات بقصات متقلعة
متواصلة وتنهذات عميقة . نفمة صداها سكينة تمازجها
مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء

وان كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل ، فالأصفهان
أنين من انفصمت عرى آماله

ونسلم « الصبا » فتستيق منا قلوب حجبها لحف
الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع . فالصبا نفمة فرح
تسنى المرء اتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذة غريبة ،

ويستزبد منها كأنه يعلم أن خمرة المسرة تسابقها . الصبا
حديث يحب مغنيط صارع الدهر وأرغم أنف البين وأسعدته
الليالي بخلوة فحظي بقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد ، فأولاه
اللقاء فرحا وابتهاجا . الصبا كنسيمات الصبا ، تمر فتتهز
لها ازاهر الحقل تبها وابتهاجا

و « للرصد » ، في سكينة الليل ، وقع في المشاعر بحاكي
تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال ، انقطعت أخباره
في بلاد بعيدة ، فجاء الكتاب يحیی عاطفة الأمل ويعد النفس
باللقاء . وكأنني بمعنى الرصد يخبر بقرب الفجر وأندحار
الظلام ، وقد قيل : « ان جهاز ليلك فارصد » .

وفي « العنابا » البعلبكية عتاب رقيق يراوح بين اللوم
والتعنيف ، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المفرح
وفعلها في النفس فعلهما

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، أراني كطفل ينسخ
كلمة من نسيده طويل ، غنته الملائكة عندما جبل الله الإنسان
الأول ، أو كأمي يستظهر جملة من كتاب وضعت الحكمة
على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر

فيا أيتها الموسيقى ، يا أوتري المقدسة (١) ، لقد رقصت
أخواتك الغنون فيما غبر من الأجيال زمنا ، ووضعن في
معاقل النسيان آخر ، وأنت تهزئين بهن ولم تتنازلي عن
مسرح النفس يوما واحدا ، فكانك صدى القبلية الأولى التي
وضعتها آدم على شفتي حواء . صدى له صدى له صدى ،
تتناقل وتناسخ وتكتنف الكل وتحيا بالكل ، بلذ لعمالها
عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه

يا بنة النفس والمحبة . يا أناء مرارة الفرام وحلاوته .
يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح .

(١) أوتري : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان

يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المساعر المضومة .
يا لسان المحبين ومذبة اسرار العاشقين . يا صائفة الدموع
من العواطف المكنونة . يا موحية الشجر ومنظمة عقود
الاوزان . يا موحدة الأفكار مع نغف الكلام ، ومؤلفة المساعر
من مؤثرات الجمال . يا خمرة القلوب الرافعة شاربها الى
اعالي عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس
العابدين . يا ايها التموجات الانثوية الحاملة اشباح النفس
ويا بحر الرقة واللفظ ، الى امواجك نسلم انفسنا وفي
اعماقك نستودع قلوبنا ، فاحملها الى ما وراء المادة وارينا
ما تكنه عوالم الغيب

تكاثرى يا عواطف النفوس وتعاضى يا مشاعر القلوب
وارفعى ابادى ذوى الابدان لبناء الهياكل لهذه الالهة
العظيمة ، وانزل يا ملاك الوحي على قلوب الشعراء ، واسكب
في خلایا قريحتهم مديحا وتسبيحا لهذه العظيمة المقدسة ،
واكبرى يا تخيلة الرسامين ، وابتدئى لها صورا واشباحا

كرموا يا سكان الارض كهنتها وكاهناتها ، وعيدوا لذكر
خدائهما وشيدوا لهم التماثيل . صلى ايها الامم وسلمى
على اورفيوس وداود والموصلى ، وعظمى ذكر بيتهو فن
وفغنر وموزار . وغنى يا سوريا باسم شاكر الطبقى ،
ويا مصر باسم عبده الحمولى . كبر ايها الكون الالى بثوا في
سمائك انفسهم وملأوا الهواء ارواحا لطيفة وعلموا الانسان
ان يرى بسمعه وبسمع بقلبه . آمين . .

هذا الكتاب

لثلاثة كتب في كتاب من هذه السلسلة . اخترناها من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران التي قامت على نشرها لجنة احياء ذكرى جبران . واول هذه الكتب : « الأرواح المتمردة » . وهو كما يدل عليه عنوانه يتحدث عن أرواح تمردت على التقاليد والعادات القاسية التي تحد من حرية الفكر وانطلاق العواطف والوجدان

والكتاب الثاني : « الأجنحة المتكسرة » . وقد اصدره جبران بعد « الأرواح المتمردة » بربع سنوات في نيويورك . وفيه يروي رواية حبه الاول يوم كان طالبا في بيروت . يرويها بأسلوب شعري شائق مشبع بروح التقديس للحب ولذاته ولامه

والكتاب الثالث : « الموسيقى » . وهو من اوائل ما كتبه جبران ، وهو يصور عالم النفس وكيف يتأثر بأنغام الموسيقى ، والوانها ، وكيف انها لغة الانسانية جمعاء التي لا تعادلها لغة في التفاهم بين بني الانسان وعلى الرغم من ان جبران عاش في أمريكا واحدا وثلاثين عاما ، ولم يعيش في وطنه لبنان غير سبعة عشر عاما الا ان اكثر مؤلفاته وكتاباتة شرقية تندفق حبا للشرق وتعرض صورا عربية ، والحنانا عربية تنبع من قلب عربي ، وتصدر عن وجدان عربي قناني